

دراسات في العلوم الانسانية

٢٦(١)، ١٤٤١/١٣٩٨/٢٠١٩، صص ٨٧-١٠٩

ISSN: 2538-2160

http://aijh.modares.ac.ir

تجليات الانزياح الدلالي - الاستبدالي في قصيدة

«الأسلحة والأطفال» لبدر شاعر السيّاب

محسن سيفي^{١*}، عباس إقبالي^٢، الهام بابلي بهمه^٣

١. أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة كاشان

٢. أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة كاشان

٣. طالبة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة كاشان

تاريخ القبول: ١٤٤١/٣/٢٨

تاريخ الوصول: ١٤٤١/٢/٣

الملخص:

يعدّ الانزياح الدلالي من أهمّ الموضوعات المطروحة في النقد الأدبي الحديث، وهو ضرب من الخروج عن اللغة المعتادة المألوفة إلى لغةٍ ملؤها الاستغراب الكلامي الدلالي، وقد وظّفه الأدباء وكبار الكُتّاب في كتاباتهم وأشعارهم كرراً وتكراراً، على غرار ما نلاحظه في أشعار جملة من شعراء العرب المعاصرين كبدر شاعر السيّاب وأدونيس وغيرهم. من أهمّ القصائد التي تبلورت فيها ظاهرة الانزياح الدلالي قصيدة «الأسلحة والأطفال» للشاعر المبدع العراقي بدر شاعر السيّاب. فقد تطرق الباحثون عبر منهج النقد الشكلاني في هذا البحث إلى تجليات الانزياح الدلالي - الاستبدالي في هذه القصيدة والتي تتمثّل آلياته في التشبيه والاستعارة والكناية وتراسل الحواسّ والمفارقة. تفيد نتائج الدراسة أنّ هذه القصيدة تتمتّع بازواجيّة دلالية بين السّلام والحرب يعبر عنهما السيّاب بأسلوب انزياحي، فيستخدم آليات الانزياح الدلالي - الاستبدالي ليضفي على نصّه الشعري رونقاً وجمالاً ويعبر عن خوالج ضميره ومكامن فكره بتقنيات بيانية تجعل المتلقي يتبع صورته الشعرية الانزياحية. فالقصيدة تحمل في طيّات سطورها بارقات الأمل المعلق على الأجيال الآتية المتمثّل في العصفير والأطفال، كما أنّ خطاب السيّاب في القصيدة أحياناً لا يخلو من إشارات اليأس والفشل والعتاب الموجه إلى الآباء الذين قد صاروا طوعاً أو كرهاً أداة في يد تجار الحديد وباعة الأسلحة. الصورة العامّة للقصيدة تبيّن لنا التقابل بين دنيا الأطفال في عصمتها ونشاطها وحيويتها وما تثير في القلب من اللذة المستكينة، وما بين الدعوة إلى الحديد والتّار والدّبابات والرصاص.

الكلمات الرئيسية: النقد الأدبي، الانزياح الدلالي - الاستبدالي، الأسلحة والأطفال، الشعر العربي المعاصر، بدر شاعر السيّاب.

١. المقدمة

تعتمد الدراسات الأدبية في أيامنا الراهنة في الأوساط العلمية والأدبية على النظريات الأدبية المعاصرة التي انعكست فيها ثلثة من النظريات التي نشأت عن علم الدلالة في معظم الأحيان، منها الانزياح الكلامي الذي تجلّى في أعمال الأدباء والشعراء. وإثر هذه النظريات، فقد ظهرت مدارس نقدية مختلفة في النصف الأول من القرن العشرين، ممّا كان من أكبر الأسباب وأهمّها في حدوث تطوّرات خطيرة على ساحة النقد الأدبي بشكل عام. من التقنيات التي استخدمها الشكلانيون ووظّفوها خلال تحليل النصوص والأشعار، الانزياح بأشكاله المتعدّدة التي تتمثّل في الانزياح الدلالي والصوتي والصوري والنحوي إلخ، والانزياح في حقيقة الأمر، هو الخروج عن معايير لغة المعيار عبر المحسنات الكلامية ومختلف طرق البيان والصناعات الأدبية وهو ضرب من تعقيد الكلام وله آليات فنيّة كالاستعارة والكناية والتشبيه والمفارقة وتراسل الحواسّ إلخ.

من هذا المنطلق، اخترنا قصيدة «الأسلحة والأطفال» للسيّاب كنصّ ذخير بتقنيات الانزياح لنبين مقدرات الشاعر وجماليّات لغته الشعرية الكامنة في طيات السطور الشعرية. ولد بدر شاكر السيّاب عام ١٩٢٦م في قرية جيحور، التي تقع جنوبي البصرة، فقد تمكّن من تقييد الشعر منذ المرحلة الابتدائية لعبقريته (عباس، ١٩٩٢م: ١١ - ١٣). كان السيّاب من الناحية الخلقية رجل الحرمان الذي أراد الانتقام لحرمانه من الناس والزمان. فعالم إلى الشرب والمجون يطلب فيهما الهرب من مرارة الحياة ومتاعبها؛ وكان إلى ذلك مفرط الحساسية يشعر بالغرابة ولا يجد له في المجتمع مُستقراً، وينظر إلى الوجود من خلال غرته النفسية. ومن خلال فرديته التي كانت تحول دون اندماجه في المجتمعات التي عاش فيها. كانت اتجاهاته الشعرية رومانظيقية في معظم الأحيان، وقد ساهمت في تكوين هذه النزعة أسباب عدّة، من وفاة الأم وزواج الأب بعد وفاتها إلى وفاة جدّته التي كانت تحمل أعباء أمّه بعد وفاتها (م. ن.: ١٣).

وأمامنا أسئلة تطلب العناية بها وهي: ما هي آليات الانزياح الدلالي التي وظّفها بدر شاكر السيّاب خلال قصيدة الأسلحة والأطفال؟ وكيف استخدمها في إيصال المعنى إلى المتلقّي؟

أما منهج البحث فالورقة تحاول الإجابة عن هذين السؤالين الهامين مستخدماً المنهج الوصفي - التحليلي في قصيدة «الأسلحة والأطفال» لتسلّط الضوء على آليات الانزياح الدلالي كالاستعارة والكناية وتراسل الحواسّ والمفارقة وتبيّن أثرها في جماليّات النصّ الشعري وإثره.

وبالنسبة إلى الدراسات السابقة التي تناولت مسألة الانزياح، فهناك العديد من المقالات والرسائل في إيران وفي مختلف الدول العربية عن الانزياح بشكل عام والانزياح الدلالي بوجه خاص منها:

١. كتب سعدالله همايوني و آخرون (٢٠١٨) بحثاً بعنوان «دراسة نصية لظاهرة الانزياح في قصيدة «أنشودة المطر» و قد عالجوا الانزياحات المتبلورة من التشخيص، والتجسيد، والتشبيه، والاستعارة، والمفارقة في القصيدة المذكورة.
٢. نشر هادي نظري مقدم و ثريا رحيمي (١٣٩٧ش) بحثاً بعنوان «جمالية الملامح الأسلوبية في قصيدة مدينة بلا مطر

لبدر شاكر السياب «درسوا فيه أبرز الملامح الأسلوبية في قصيدة مدينة بلا مطر، وهي قصيدة سياسية رمزية تمتاز بالتفرد والخصوصية وركزوا على الانزياح الأسطوري فيها.

٣. كتب ابراهيم أناري وآخرون مقالة علمية محكمة تحت عنوان: "هنجارگریزي معنای قرآن در شعر محمد عفيفي مطر" في مجلة «انجمن ایراني زبان و ادبیات عربي»، العدد ٢٥ لعام ١٣٩١ش تناولت ظاهرة الانزياح الدلالي بآليات التشبيه والكنایة والمجاز في أشعار محمد عفيفي مطر.

٤. نشر في العدد ١٧ من مجلة «پژوهش‌های نقد ادبی و سبک‌شناسی» المحكمة عام ١٣٩٣ش بحث عنوانه "هنجارگریزي معنای در شعر مولوی وابن فارض" لروح الله صیادی نژاد ومنصوره طالبیان، حيث قارنا بين التشبيهات والاستعارات الانزياحية في شعر الشعراء على أساس المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن.

٥. كتب الدكتور بنالدين بخولة في جامعة حسينية بن بوعلی في الشلف (الجزائر) مقالة تحت عنوان "الانزياح الدلالي وأثره في تطوّر اللّغة" تحدّث فيها عن الانزياح الدلالي وأشكاله وأضرابه.

٦. و هناك رسالة "الانزياح الدلالي في قمر شیراز لعبد الوهاب البياتي" كتبها ليندة حمدي في جامعة محمد خضير بسكرة بالجزائر عام ٢٠١٥م، وسلّطت الضوء فيها على الكناية والاستعارة والتشبيه وتجلياتها في ديوان «قمر شیراز» في ضوء مفهوم الانزياح.

على أية حال، لم يحصل الباحثون على مصدر تطرّق إلى مسألة الانزياح الدلالي في قصيدة الأسلحة والأطفال لبدر شاكر السياب وهذا ما يرومه البحث.

٢. قصيدة الأسلحة والأطفال في سطور

الصورة العاقمة للقصيدة تبين لنا التقابل بين دنيا الأطفال في عصمتها ونشاطها وحيويتها وما تثير في القلب من اللذة المستكنية، وما بين الدعوة إلى الحديد والنار والدبابات والرضاص. يمثل الشاعر دنيا الأطفال بكل مهارة وبراعة، كما يرسم الدنيا خالية منها، كيف يكون؟! وعلى حدّ تعبير السياب في القصيدة:

فمن يتبع الغيمة الشارده

ويلهو بلقط الحمار؟

ويعدو على ضفة الجدول

ويسطو على العشّ والبلبل

ومن يتهجّى طوال النهار

ومن يلغ الرء في المكتب (السياب، ١٩٨٩م، ج ١ : ٥٧٩).

يتصارع الطرفان في قصيدة الأسلحة والأطفال، وهما الإمبريالية الاستعمارية والأطفال، ويرى الشاعر أنّ الأطفال هم

المنتصرون في هذه الحرب غير المتكافئة. ثم إنَّ الشَّاعر فقد التزم خلال هذه القصيدة بمحوم الأطفال وكأنَّه أحد منهم، يهتم بإقامة حياة سعيدة وهذا بلاشك يعبر عن موقف الشَّاعر الإنسانيّ.

صحيح أنَّ هذه القصيدة «نظمت قبل انفصاله عن الحزب الشيوعيّ العراقيّ، لكنَّه نَحَّحها فيما بعد وغيَّر بعض صورها وأفكارها بما يتلاءم والمرحلة الجديدة التي بدأها بتفكير إنسانيّ أرحب ممَّا كان عليه سابقاً... وعلى ذلك، فإنَّنا في القصيدة «نلمح بالسيَّاب يلحاً إلى أسلوب المقابلة بين الحرب والسَّلم، بين باعة الحديد وبين الأطفال... بين تجار الحروب من كلِّ مكان والأطفال أيضاً في كلِّ العالم... بين الفقراء الذين يبيعون الحديد العتيق من أسرة وأدوات... وبين الأغنياء والرأسماليين الذين يفتشون عن أساليب يمتصُّون بها دماء الشَّعب... بين العمَّال الكادحين في معاملهم يتحمَّلون العذاب والآلام ليقدموا للبشرية أرقى صور الحضارة وبين المستغلِّين المترصِّين بشقاء العمَّال والفلاحين... وبالطَّبع فإنَّ بدرنا ينتصر للبشرية المعذَّبة ويؤكِّد دوماً على تفاؤله بانتصار الخير وأنَّ المطر سيهطل على أرجاء المعمورة ويعمَّ الخصب وينتشر السلام» (المعش، ٢٠٠٦م: ١٣٦).

فالسَّيَّاب في هذه الفترة من حياته لا يهدأ عن مناضلة الظلم والظالمين. فهو يشنُّ حملة مستمرة على الرأسماليين وصانعي الحروب وناهي ثروات الشَّعوب. تتمتَّع هذه القصيدة بازدواجية دلالية بين السَّلام والحرب. كما يتصوَّر «وسائل السَّلم بأنَّها تتحوَّل في يسر إلى وسائل دمار، فلا يسع إلاَّ صوت الرِّصاص وآهات النكلى والطفل الشريد، ثمَّ يقسم الشَّاعر بأقدام الأطفال وبالخبز والعافية إنَّ جباه الطغاة لا يدُّ من أن تعفر...» (عباس، ١٩٩٢م: ١٣٦).

٣. الانزياح لغة واصطلاحاً

الانزياح في اللغة هو الذهاب والتباعد، وهو من أصل: زيح - زيحاً وزيوحاً، بمعنى: بعد وذهب ومضى. يقول صاحب لسان العرب: "زيح: زاح الشيءُ يزيحُ زِحاً وزيوحاً وزيوحاً وزيحاناً، وانزاح: ذَهَبَ وَتَبَاعَدَ؛ وَأَزْحَهُ وَأَزْحَهُ غَيْرُهُ" (ابن منظور، ١٩٩٠م، ج ٢: ٤٧٠).

أما الانزياح في الاصطلاح فيشير على نحو صارم إلى اختلاف في التواتر عن المعيار أو المعدَّل الإحصائيّ، كالاختلاف المستند إلى انتهاك الأعراف القياسية للبنية اللغوية، سواءً كانت تلك البنية صوتية (فونولوجية) أم معجمية أم دلالية أم نحوية، بمعنى أنَّ الانزياح هو اختراق مثالية اللغة والتجرؤ عليها في الأداء الإبداعيّ، بحيث يفضي هذا الاختراق إلى انتهاك الصياغة التي عليها النسق المألوف أو المثاليّ، أو إلى العدول في مستويي اللُّغة الصوتيِّ والدلاليِّ عمَّا عليه هذا النسق (رشيد الددة، ٢٠٠٩م: ١٥).

يجب الإشارة إلى أنَّ كلَّ ضرب من أضراب الخروج عن لغة المعيار أو اللغة المثالية لا يتسم بسمة الصحَّة والقبول، قد يكون الخروج عنها ضرباً من التشويش الكلاميِّ الذي يختل الفهم والمراد من إلقاء الكلام، ممَّا لا يندرج في خانة الانزياح الدلاليِّ الصحيح والمقبول، بل المعيار الأوحده لصحَّة الانزياح وقبوله، هو عدم الخروج عن الفهم المقبول وعن الجماليَّات

الكلامية، بحيث إذا خرج الكلام عن حالته المعتادة إلى حالة مستغلقة غير قابلة للفهم لا يختم هذا الضرب من الانزياح والخروج عن اللغة بختم الصحة والمقبولية (صفوي، ١٣٧٣ش: ٥١ - ٥٤).

يمكن تقسيم الانزياح إلى قسمين وهما؛ الانزياح الاستبدالي وهو يتعلق بالوحدة اللغوية أو بدلتها، كاستعارة والمجاز والكناية والتشبيه إلخ، والانزياح التركيبي الذي يقصد به خروج اللغة اعتياداً في ربط الدول بعضها ببعض في العبارة الواحدة أو في التركيب وال فقرات، كبعض أنواع التقسيم والتأخير والحذف والإضافة والانتقال من أسلوب إلى آخر وما إلى ذلك (محمد ويس، ٢٠٠٥م: ١١٢ - ١٢٠).

والملاحظ أننا خلال هذه الدراسة اكتفينا بالانزياح الاستبدالي المتمثل في التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز وتراسل الحواس والمفارقة فحسب، لكثرة مختلف وجوه الانزياح الدلالي في القصيدة، ذلك أننا لو أردنا أن نستخرج جميع وجوه الانزياح الدلالي في القصيدة لم يكن يتيسر لنا ذلك لكثرة وجوهه وأضرابه. يمكن دراسة الانزياح الدلالي في قصيدة «الأسلحة والأطفال» على مستوى الانزياح الاستبدالي على النحو التالي:

٣-١. الانزياح بالاستعارة

علم البيان والذي كان ولا يزال يتمتع بمكانة كبيرة عند الأدباء وعلماء البلاغة والألسنيين. يقول أرسطو "إن الاستعارة هي أفضل الأساليب، وهم قد عرفوها بأنها هي انتقال اسم شيء إلى شيء آخر" (أرسطو، ١٩٨٠م: ١٢٨).

يقول صاحب العمدة: "الاستعارة أفضل المجاز، وأول أبواب البديع، وليس في حلي الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها" (القيرواني، ١٩٨٨م، ج ١: ٤٦٠). ويقول القزويني في تعريف الاستعارة المكنية: "على ذلك تشبيه المضمرة في النفس فلا يصرح بشيء من أفعاله سوى المشبه ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به ويسمى إثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخيلية" (الفتازاني، ١٣٧٠ش: ٢٣٩).

فقد ظهر مختلف وجوه الاستعارة خلال قصيدة الأسلحة والأطفال، نشير في التالي إلى عدد منها وهي أكثر مساهمة في حدوث الانزياح الدلالي الذي نحن بصدد. أكثر ما استخدم الشاعر الاستعارة المكنية والتخيلية تلبية على إلباس شعره الانزياح الدلالي، ثم تليها الاستعارة التصريحية. أما شواهد المكنية منها فكثيرة، وهي "الدواليب .. جدلى" في قوله:

وَأَنَّ الدواليبَ فِي كُلِّ عَيْدٍ

سَتَرْتَنِي بِهَا الرِّيحُ ... جَدَلِي، تَدُورُ (السياب، ١٩٨٩م، ج ١: ٥٩٠).

والصورة الحقيقية أن هبوب الرياح قد تؤدي إلى دوران الدواليب وحركتها ولكن الشاعر قد أبدع صورة شعرية انزياحية عندما عبر عن فرح الدواليب لما تحركها الرياح، كأنها كانت حزينة منطوية على نفسها من زمانٍ و بدأت تمب الرياح وتحصنها على الحركة والدوران فتغيرت حالتها من الشعور باليأس والقنوط والسكون إلى الأمل والفرح والسرور.

وأيضا الاستعارة المكنية ضرب من التشخيص، والأخير هو إعطاء الكائنات غير الناطقة مواصفات إنسانية تقوم على

أساس تشخيص المعاني المجردة ومظاهر الطبيعة الجامدة في صورة كائنات حيّة تحسّ وتتحرك وتنبض بالحياة" (عشرى زايد، ٢٠٠٨م: ٧٦). وله شواهد مختلفة في القصيدة، منها قول بدر شاكر السياب:

ولا صببية في الضحى يلعبون

ولا همس طاحونة من بعيد

ولا يطرق الباب ساعي البريد (السياب، ١٩٨٩م، ج ١: ٥٢٨).

فالشاهد المذكور ضرب من الاستعارة المكثبة التخيلية، كما يصحّ إدراجه ضمن التشخيص كما أضحنا، لأنّ الشاعر جعل للطاحونة همساً وتمتمة! فإثبات الهمس للطاحونة هو الاستعارة التخيلية وإلباس الطاحونة صفات إنسانية وهي ههنا الهمس أو التمتمة هو التشخيص! فلا تهمس الطاحونة في عالمنا بشكل من الأشكال! فلا ترى ذلك في لغة المعيار وهو لغة التحوار والكتابة بل يتحقق ذلك في ساحة الشّعر والنثر!

ومن شواهدنا تعبير "العتاف الطروب" في قوله:

رصاص ليخلو هذا الطريق

من الضحكة التّرة الصّافية

وخفقي الخطي والعتاف الطروب (م.ن: ٥٧٣).

حيث شبه السياب العتاف بكائن أو إنسان يطرب، وقد حذف من المشبّه به ما حذف ولم يبق منه إلا أحد لوازمه المتمثلة في الطرب، فكأنّ العتاف وهو الصباح الشديد وهو يصدر ههنا من الأطفال لما أصابهم من مرح ولذة الطفولة فرحان طروب، فالعتاف لا يطرب ولا يصيبه الهمّ والحزن في عالمنا المعتاد بشكل من الأشكال، ولكنك لو نظرت إلى عالم الشعر والأدب لوجدت شيئاً آخر تماماً، فالعتاف هنالك يطرب ويصرخ فرحاً ومرحاً! بل يعلو بصوته ليُسمع في كل طريق، وهذه الميزة هي الأساس الذي يميّز عالم الأدب والشّعر عن عالم اللّغة المعتادة وهو الذي يثير الغرابة عند السمع، ممّا يدفع بالمتلقّي إلى مزيد من التأمل والتفكير.

ومن الشواهد الأخرى لهذا الانزياح قول الشّاعر في الأبيات التالية:

كأني أسمع خفق القلوع/

وتصخاب بحارة السندباد... (م.ن: ٥٦٤).

في معجم الشاعر للقلوع خفق، حيث جعلها مثل الإنس أو الحيوانات، ينبض قلبها ويمتزج بحفقاتها صراخ السندباد الأسطوري. ما أروع هذه الصورة الانزياحية الاستعارية! فالشّاعر قد خرج عن اللّغة المعتادة واستدعى ملكة خياله، معبراً عن حركة مشاريع السفينة لما تحبّ عليها الرياح بالخفق تخنفي في طياته مدلولات الحركة والاضطراب والخوف والرّجاء. وكذلك من هذا الضرب من الاستعارة، قول بدر في وصف الحرب، حيث يصف وجه السّماء بالعبوسية:

أرى الفوهات التي تقصف

تسدّ المدى واللظى، والدماء

وينهل كالغيث، ملء الفضاء

رصاص و نار: ووجه السماء

عبوسٌ لما اصطكَّ فيه الحديد (م: ٥٧٢).

فقد وصف الشاعر السماء برجل معتم عبوس، فالسَّماءُ إذن مشبَّه بالرجل مشبَّه به، بينما نراه حذف المشبَّه به، وأبقى أحد لوازمه وهو العبوسية وعدم انفتاح الوجه. ذلك أنَّ في اللَّغة المعتادة لاتتَّصف السَّماءُ بالعبوسية أبداً، بل السَّماءُ كائن لا يتمتَّع بالحياة التي عاهدناها للكائنات الحيَّة بوجه من الوجوه. كما ترى الشاعر في الأبيات التالية يجعل للخطى والأقدام خفقا وحركة ودينامية، على نحو قوله:

رصاصٌ... ليخلو هذا الطريق

من الضحكة الثرة الصافية

وخفق الخطى والهتاف الطروب (م: ٥٧٣).

يتحدَّث الشاعر عن رصاص ودبابات قد أطلقت على المدَّيين والأطفال الأبرياء، رصاصات قد أحلت الطرق من ضحكهم وطربهم، كما قطعت خطى العابرين بحيث لم يعبر عليها ناس ما تزوبعد إطلاقها، لأنه لم يتبقَّ فيها أناس، بل كلهم أصبحوا ضحية طغيان الطاغين! فقد وصف الشاعر الخطى والأقدام بكائن حي كالإنسان له الحركة والدينامية، وقد حذف المشبَّه به وأبقى أحد لوازمه الذي يتمتَّل في الخفق والنفض، وبذلك يجعل الشاعر للخطى التي ليست لها حياة في حقيقة الأمر - ذلك أنَّ حياة الخطى تعود في الأصل إلى صاحبها وليست إليها وحدها- نفضاً وحياة. وكذلك من قبيل هذا الضرب من الاستعارة الوجودية التالية في القصيدة:

"يحوك الردى" و"المنايا تغير" في قوله في المقطع التالي، حيث يشبَّه الشاعر مرة (الردى) بإنسان أو امرأة تحوك غزلاً، بينما هذا الموت لا يحوك الغزل بل شباكاً من النار المؤجَّجة على صبية أبرياء مظلومين، ومرة يصف المنايا بأنَّها تغير على الناس وتحمهم وتقتلهم، ومن ثمَّ شبَّه المنايا بكائنات أو موجودات تغير على الناس والأطفال الأبرياء:

يحوك الردى غزله الأسود/ دماً أو دخاناً؟ يحوك الردى/ شباكاً من النار حول البيوت/ على صبيةٍ أو صبايا تموت؟/ ويرتدّ حتّى حديد السرير/ جناحاً عليه المنايا تغير/ وحتّى الذي في عيون الدُمى/ من المعدن الرثيقي الحسير/ رصاصاً أبح الصدى مُرزيماً (م: ٥٧٥).

"همس النواعير" و"نبض الحياة" و"قلب الترى" و"الصخور الصنينة" في قوله في المقطع التالي:

وهمس النواعير، والزراعون

وفي كل حقلٍ - كنبض الحياة-

تمزَّ الحارثُ قلب الترى

وتبني القرى

قرى طينها من رميم الطغاة

وتخضلّ حتّى الصّخور الصّنيّنة (م.ن: ٥٧٦ - ٥٧٧).

حيث يجعل الشّاعر للحياة نبضا وللثرى أو الأرض قلباً، ومن المعلوم أنّ الحياة لاتنبض والثرى ليس له قلب، بل يحدث ذلك في عالم الشّع والأدب، كما أن الشّاعر يصف الصّخور بالصّنيّنة، أي: أنّه يجعل للصّخور صفة البخل. هل للصّخور حياة حتى تتصفّ بالبخل؟ ليست لها تلك الحياة التي عاهدناها، هذه حياة لم نعهد بها إلّا في الشّع وعالم الأدب الذي يجبح فوق عالمنا المعهود ولغتنا المعتادة، وكذلك يتّصف النواعير بالهمس، والهمس صفة إنسانيّة لاتوجد في الأشياء والكائنات غير الحيّة.

"هسهسة الخبز" في قوله:

وهسهسة الخبز في يوم عيد

وغمغمة الأمّ باسم الوليد (م.ن: ٥٦٣).

من الواضح أنّ الخبز ليس له حياة وتكلّم حتى يتكلّم ويهسهس، إلّا أنّ الشّاعر جعل له في التّعبير المذكور حياة وكلاماً، فهو يتكلّم إذن، ويهسهس، فما هي الهسهسة التي توجد في الخبز فالشّاعر يرى في الخبز كلاماً وحديثاً خلافنا وهذا هو ما أشار إليه العلماء والنقاد منذ زمان: الشاعر سُمّي شاعراً لأنّه يشعر بما لايشعر به الآخرون فسماع صوت الخبز وهسهسته أو صوته الخافت، هو الانزياح في البيت بعينه، لأنّه خروج يلفت الانتباه تمام الالتفات.

"يفلّ الرّدى بالحياة" في قوله:

يغنيّ بأشواقه العاتية / إلينا إلى القمة العالية/ إلى أن يفلّ الرّدى بالحياة (م.ن: ٥٦٤).

حيث يشبّه الشّاعر الردى أو الموت بسيف مسلول قد يصيبه الفلول أو ما هو خلاف الحدة لكثرة استعماله في الحروب، فقد ذكر الشّاعر الردى أو الموت (مشبّه) وحذف المشبّه به وهو السيف المسلول، ولم يبق منه إلّا أحد لوازمه الذي يتمثّل في الفلول أو خلاف الحدة، ليصنع استعارة مكنيّة في نهاية الجمال، وإثبات الفلول للرّدى هو التخجيل، ثمّ إنّ هذا التّعبير لاتشاهده في لغة الحوار بشكل من الأشكال، بل في لغة الأدب والشعر، ويبدو أنّ السيف يفلّ باستعماله في الحروب واصطكاكه مع السيوف الأخرى، إلّا أنّ الرّدى لا يصيبه الفلّ إلّا بواسطة الحياة! كأنّ الحياة سبب لفلول الموت والرّدى وهو كذلك حتماً.

وكذلك من شواهدنا:

سلام على العالم الأرحب

على الحقل والدار والمكتب

... على شاعر تستحّم الشّموس

بعينه، يصغي إلى جندب!... (م.ن: ٥٨٤ - ٥٨٥).

فهو يسلم على عالم رجب مترامي الأطراف، وعلى شاعر كبير يستحّم الشّمس بين عينيه، ثمّ يصغي إلى صوت الجندب

وهو ضرب من الجراد يصدر منه صوت جميل! فكأننا نعلم أنّ استحمام الشمس - بل الشمس - في عيون الشاعر ضرب من الاستحالة الكلامية العقلية، كأنّ الشاعر يشبه انعكاس الشمس بين العيون إلى استحمامها في العيون، ويبدو أنّ كلمات الشمس والاستحمام والعيون إلخ، ليست بكلمات تصاحب بعضها بعضاً في اللغة المعيارية عادة، بل إنّها كلمات تتنافر عن بعضها بعضاً في تلك اللغة، إلّا أنّنا الآن أمام لغة طرأ عليها الانحراف اللغوي، حيث فيها تستحمّ الشمس في العيون، وبذلك، فقد استطاع الشاعر أن يخرج الكلام والكلمات عن تركزها المقيت المضني، ليصنع منها ما يثير غرابة المتلقي تماماً، حيث يصف الشاعر شمساً تستحمّ! ليس استحماماً عادياً معتاداً، بل استحماماً في العيون! في عيون هذا الرجل الذي يصغي إلى أم جندب أو الجراب! فالشاعر يخلق استعارة مكنية تخيلية غير معهودة ثمّ إنّّه يستخدم تعبيراً عكسياً في المقطع المذكور، حيث يقول: إنّ الشمس تستحمّ في عيون الشاعر، بينما الحق هو أنّ الشاعر يستحمّ تحت أضواء الشمس الحارة وليس العكس.

هذا وأنّ الاستعارة بمختلف وجوهاها في القصيدة المذكورة لا تنحصر في الأمثلة التي سبق أن تحدّثنا عنها، بل هناك أضراب أخرى من الاستعارات الجميلة الخلابية التي وظّفها الشاعر خلال القصيدة ليخلق انزياحات دلالية في غاية الروعة والجمال. من ذلك توظيف الاستعارة التبعية في الأمثلة التالية من مقاطع القصيدة:

أسى ذقتُ منه الدموع، الدموع

أجأجاً مثل اللظى في الفم

وأحسستُ فيه اشتعال الدّم (م.ن: ٥٨٠).

من هذه الاستعارة قوله: "اشتعال الدّم" وأراد به "غليان الدم أو حرارته".

وكذلك من ضمن هذا الضرب من الاستعارة قوله:

يرنّ بساق الوليد

وبين الرّبي في رقاب الجداء

ولا وسوس الشاي فوق الصّلاء (م.ن: ٥٨٢).

حيث أراد بالوسوسة الغليان، وهذا كما هو معلوم ضرب من الاستعارة التبعية، وذلك لأنّها تبدأ بداية في المصدر منها، ثمّ تمتدّ إلى الفعل وبقية أشكال المادّة.

والوجه الآخر من الاستعارة والذي أورده الشاعر خلال قصيدته هو الاستعارة التصريحية. من شواهدها كلمة "العصافير"

في قوله في مطلع قصيدته:

عصافيرُ أم صبيةٌ تمرّحُ/

عليها سنّاً من غدٍ يلمحُ؟ (م.ن: ٥٦٣).

وهي استعارة عن الأطفال الأبرياء المعصومين في جبلتهم وعصمتهم، وتجدر الإشارة إلى أنّ الشاعر يبدأ قصيدته باستفهام

تقري، مما له دلالة على أنّ الشاعر لا يتحدث بقطعية فهو على شكّ من أنّ سنا الغد هل سيلمح غدا أم ينطفئ؟ في ذلك إيجاء بأنّ الشاعر في مرية من ذلك، وهذا الاستفهام ينطوي على هذا المفهوم بكلّ براعة، وما يدلّ على هذه العصمة والظاهرة الطفولية تشبيه أقدامهم بالبحار وانتشار رائحة الشمال من أذياهم وجحورهم، وهي رائحة تبعث النشاط والحيوية. وكذلك من شواهد هذا الضرب من الاستعارة كلمة "الحديد" في قوله:

حديداً عتبي... ق

رصاصاً... ص

حديداً... د (م.ن: ٥٦٩).

حيث عبر الشاعر عن السلاح بالحديد ووظّف في تعبيره هذا استعارة تصريحية قائلا: إنّ الحديد المستخرج من المناجم القديمة سوف يصير سلاحاً ورصاصاً يطلقه الظالمون ضدّ الأنايس الأبرياء.

٢-٣. الانزياح بالكناية والرمز

تعدّ الكناية من أبرز أشكال الانزياح الدلالي، لكونها متصفة ببعدين أو جانبين مختلفين، جانب قابل للإدراك والفهم بكلّ سهولة وجانب معقد بعيد عن الفهم. فإذا ألقى الكلام وأريد به الجانب الثاني فهذا من أبرز أشكال الانزياح الدلالي. فالكناية إذن تعتمد ألفاظاً وكلمات معروفة يؤتى بها في سياقات غير معروفة عند المثقفي، لتبعده عن الدلالة المعجمية المعروفة، حتى تتجلى دلالات حديثة أخرى، وعلى حدّ تعريف عبد القاهر الجرجاني: "المراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: "هو طويل النجاد"، يريدون طویل القامة "وكثير رماد القدر" يعنون كثير القرى وفي المرأة: "نقوم الضحى"، والمراد أنها مثرفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها، فقد أرادوا في هذا كله، كما ترى، معنى، ثم لم يذكره بلفظه الخاص به، ولكنهم توصّلوا إليه بذكر معنى آخر" (الجرجاني، ١٩٩٢م: ٦٦).

من التعبيرات الكنائية التي وظّفها الشاعر خلال قصيدة "الأطفال والأسلحة والأطفال" قول الشاعر في المقطع التالي، حيث يقول:

صدى رجعت الأكتف الصغار

يصقّقن في الشّارع المشرق

كخفق الفراشات مرّ النهار

عليها بفانوسه الأزرق (م.ن: ٥٦٥).

وظّف الشاعر عبارة "يصقّقن في الشّارع المشرق" كناية عن مستقبل مشرق زاهر، يكتب فيه النجاح للأطفال والكادحين. كما أنّ الفانوس الأزرق يكتئ به عن السلامة والأمن والطمأنينة ويبدو أنّ الشاعر يتحدث عن نحر يمرّ على المنطقة وعلى الأطفال بفانوسه الأزرق المتمثل في السماء، فالسماء إذا كانت صافية زرقاء، فهي رمز للأمن والسلام، وأما إذا كانت مغبرة

الوجه وقائمة الصورة، فهي تأتي في القصيدة بفعل قصف المناطق بواسطة الطائرات فينتشر الدخان في الأفاق ويقتم صورتها، فلا يبقى أثر من آثار جمالها.

ويقول في مقطع آخر من القصيدة:

لقيدٍ سيُلوى على معصم

ونصلٍ على حُلْمَة أو وريد

وقفلي على الباب دون العبيد

وناعورة لاغتراف اللّمْ (م.ن: ١: ٥٧١).

كلمة "الناعورة" نفسها تدلّ على هذا الظلم والطغيان المقيت، وتعبير اغتراف اللّمْ له دلالتان، دلالة كناية عن امتصاص ثروات النَّاسِ واغتصابها، ثم إنزال الظلم والتعسف في حقهم. تجدر الإشارة إلى أنّ الشّاعر عبّر عن هذا الظلم بكلمة اغتراف اللّمْ، والاعتراف يعني شرب الماء جرعة جرعة، كأنّ هؤلاء الطّاغين الظالمين يلذّمهم أنّهم يسرقون ويغتصبون بكلّ هدوء واستمرار!

والتعبير المذكورة كلّها كنايةات عن الظلم وعدم الحرّية، من قوله: "لقيدٍ سيُلوى على معصم" وقوله: "ونصلٍ على حُلْمَة أو وريد" وقوله: "وقفلي على الباب دون العبيد" إلى قوله: "وناعورة لاغتراف اللّمْ". ثم يأمل الشّاعر ويتفاعل بأنّ المستقبل سيكون في يد الأطفال والأبرياء، فهم يستمعون أخيراً إلى الهدوء والطمأنينة، وقد عبّر عن هذا المفهوم بقوله "يصغي إلى جندب":

على شاعرٍ تستحّم الشّمس

بعينه، يصغي إلى جندب (م.ن: ٥٨٥).

فإلصغاء إلى الجندب لا يتحقّق إلّا في جوّ من الهدوء والطمأنينة المنشودة التي دعا إليها الشّاعر، ذلك أنه لا يصدر من الجندب أو الجراد صوت إلّا في أجواء بلغت في الهدوء إلى أقصى ما يمكن أن يبلغ، ولم يسمع أحد صوته في الضّجيج والضوضاء، وفي تلك الأبيات إشارات إلى أن الحرب وضعت أوزارها وانتهت مآسيها حينذاك! كما أنّ تعبير "ظلام العصور" يكتئ به عن الدّل والعبوديّة وهي بطبيعة الحال كناية عن صفة كما هو معلوم. وكذلك قوله: "عالم كل ما فيه نور" كناية عن صفة وهي الحرّية والسّلام، فكنايات عن هذا المفهوم تكررت كثيراً في مقاطع هذه القصيدة ومختلف مواضعها.

ويرمز بالمحار عن الصّفاء والتّقاء والتّلالؤ، كما أنّ السّاقية هي رمز الطّهارة والشّمأل رمز النشاط والحيويّة وحقل السنبل يرمز بما إلى الخصب والنماء، والحزب إلى الخصب والنماء والبركة، والأُمُّ إلى السعادة والرّاحة. وكذلك يرمز بالعشب والزهور والنور إلى الخير والعطاء في المستقبل. فكلّ التّعبير المذكورة لها دلالتها على النشاط والحيويّة والخصب، حيث إنّ الأطفال يلعبون ويمرحون، وعندهم أمهاتهم ويلعبون في حقول السنبل الخضراء إلخ.

كما أنّ الشّاعر وظّف تعبير الرّبيع للأمل والمستقبل الزاهر والخریف للتشاؤم وانطفاء نجم الأمل، والباشق يرمز به الشّاعر عن الاستعمار والإمبرياليّة، وهو يطير في آفاق السّماء بغية اصطياد الأطفال وقد عبّر عنهم بالعصافير، فهذا الباشق يطير في

آفاق المدينة ويصبح كالمدينة أو السكن الحاد. والتاجر يرمز به الشاعر إلى حكام العرب الفاسدين الفاشلين الذين باعوا الوطن وأصحابه بدراهم بخس! يجدر الإشارة إلى أنّ هذا التاجر الفاسد الذهيو رمز لأصحاب السلطة السياسيّة وأصحاب القدرة والمكنة له سمات، منها: أنّه يعامل مع الإمبراليين، وهو يسعى ويحاول وراء الحصول على مصالحه الذاتيّة الشخصيّة المنحطّة، كما هو جاهل بالنسبة إلى شعبه، أو يتجاهل أحوالهم وظروفهم المعيشيّة، لأنّ تلك الأسلحة التي يشتريها من خصومها، يوما ما تتحوّل إلى آلة فتاكة تقتل أولاده أولاً، ثم الآخرين ثانياً! ثم في ذلك إشارات إلى أنّ هؤلاء التجار المشؤومين يشترون النساء ويتعاملون بغيره الناس ونواميسهم!

صدي رابع من خطي التاجر

له الويل .. ماذا يريد؟

حديد عتيق رصاص ... حديد...

لك الويل من تاجرٍ أشأم

ومن خائضٍ في مسيل الدّم

ومن جاهلٍ أن ما يشتريه

لدرء الطوى والرّدى عن بنيه

قبورٌ يوارون فيها بنيه

حديد عتيق رصاص... ص حديد...

حديدٌ عتيق لموتٍ جديد!

حد... يدٌ

لمن كلُّ هذا الحديد؟

لقيدٍ سيلوى على معصم

ونصلي على حلمةٍ أو وريد

وقفل على الباب دون العبيد

وناعورة لاغتراف الدّم... (م.ن: ٥٧٩)

وكذلك يرمز الشاعر بالزعد القريب والزعد البعيد إلى صوت الانفجار الناجم عن الدتبات والألغام إلخ. الضحكة الثرة الصّافية يرمز بها إلى الطمأنينة والسّلام والأمن! وذلك أن الضحكة لاتظهر إلّا بعد قرار القلب وطمأنينته.

٣-٣. الانزياح بالتشبيه

يعدّ التشبيه من أهمّ مباحث علم البيان في البلاغة العربيّة وهي الآليّة الأخرى استخدمها الشاعر بدر شاكر السّياب لتجسيد

الانزياح الدلالي، والتشبيه قد يستعمل كذلك في الكلام المعتاد، وهذا الضرب من التشبيه عادة سهل بسيط لا يتسم بتوظيفه بالخروج والانحراف عن اللغة المعتادة إلى اللغة الأدبية الشعرية، ومن ثم خلال هذه القصيدة لم نركز إلا على التشابه التي كانت لها يد في مسألة الانزياح والانحراف عن اللغة المعتادة، تلك التي كانت غير مكرورة في اللغة. يقول بدر شاكر السياب في وصف الأطفال بالربيع في نقائهم وحيويتهم ونشاطهم واحضارهم:

وهم في ليالي الشتاء الطوال

ربيع من الدفء والعافية! (م.ن: ٥٦٥).

والنقطة التي لا بد من الإشارة إليها أن التشبيه لا يندرج ضمن الانزياح الدلالي إلا إذا كان بديعا جميلا غير مكرر، لأن وجوه التشبيه المختلفة - كما أختارنا - تتكرر في الكلام المعتاد أيضا. تشبيه الأطفال بالربيع تشبيه يندرج ضمن الانزياح الدلالي. ثم إن الشاعر لا يكتفي بتشبيه الأطفال بالربيع فحسب، بل يمزج ذلك بوصف أحوالهم التي تتمثل في رقصهم ونشاطهم ومرحهم، فهم يلعبون تحت الأشجار ويعلقون أراجيح في الخيال تحتها وتحت شجرة التفاحة المثمرة التي نامت العصفير تحت أغصانها.

يقول السياب كذلك في وصف أقدام الأطفال العارية:

وأقدامها العارية

محارّ يصلصل في ساقيه (م.ن: ٥٦٣).

شبه الشاعر الأقدام العارية لهؤلاء الأطفال بمحار ساقية يصدر منه صوتٌ حال حركتها. يبدو أن وجه الشبه بين الأقدام والمحار هو تألؤها وبياضها في الماء حال انعكاس الضوء عليها، وكذلك الصوت الصادر عن الحركة عند كليهما. ويقول في الأبيات التالية:

وأمّ كما استوحشت في الخريف

وراء الدجى، دوحة عارية

وفرت عصفيرها الشادي (م.ن: ٥٦٨).

فقد وصف الشاعر أمّ الأطفال بدوحة أي شجرة باسقة عارية، والهدف من وراء كلمة العارية المنسوبة إلى الدوحة أو الشجرة الباسقة، خلوها من الأوراق، وكأنها بخلوها من تلك الأوراق أصبحت عارية، أما ما هو وجه الشبه بين الأمّ والدوحة العارية، هو فقدان كليهما عما يتعلّق بهما، عن الأولاد والأطفال فيما يخصّ شأن الأمّ وعن الأوراق فيما يخصّ شأن الدوحة، ذلك أن أولاد هذه الأمّ الحنون ماتوا بل استشهدوا بفعل هجمات الطاغين وقصف طائراتهم، تدلّ عبارة وفرت عصفيرها الشادية على أن هؤلاء الأولاد تفرّقوا هنا وهناك بين فازّ جريح وبين شهيد ساقط على وجه الأرض.

يصف الشاعر كذلك في الأبيات التالية ما يعانیه التجار والإمبراليون من الحقد الدفين في قلوبهم:

لظى الحقد في مقلة الطاغية

ورمضاءً أنفاسه الباقية (م.ن: ٥٧٤)

شبهه السيّاب حقد هؤلاء الطّاعين الدفين باللّظى وشعل النار المتأججة، كأنّ حقدهم لا يجبو ولا يزول، وفي تشبيه آخر يشبهه أنفاسهم بالرمضاء وحرارة لاتطاق فالأنفاس أصبحت وكأنّها رمضاء ودفء الصحراء غير المطاق. فالأنفاس ليست بتلك التي تخرج اعتيادياً، فهي تحوّلت من اعتياديتها إلى حالة أخرى وهي التشغي من الأبرياء المضطهدين وإلا لا يهدأ لها بال ولا تستقر! وكذلك في الأبيات التالية يوظّف الشّاعر تشبيهاً بليغاً آخر، عندما يصف المنايا التي تظهر في كل حذب وصوب:

فلا قاذفات المنايا تغير

ولا من شظايا تسدّ الفضاء (م.ن: ٥٨٧).

يأمل الشّاعر أنّ يتمتّع العالم كلّهُ بعالمٍ ملؤه السّلام والصّلاح، وبسماء خالية من الطّيارات القاصفة والقاذفات التي تودي بأرواح الألوفا والملايين من البشر. فقد وظّف خلال العبارة المذكورة عبارة في غاية النقاوة والجمال، بقوله: فلا قاذفات المنايا تغير! يأمل الشّاعر أنّ تكون هناك سماء لاتدفع فيه المنايا قاذفاته لقتل الناس، وقد شبه خلال هذا التّعبير المنايا بالقاذفات التي تقتل وتهلك. فـ "قاذفات المنايا" تشبيه بليغ لوجود طربي التشبيه (المنايا - القاذفات) حصراً، فالمنية كأنّها طائرة تقصف النّاس وتقذفهم الرشاش والألغام فيستأصل شأفتهم.

٣-٤. الانزياح بتراسل الحواس

تراسل الحواس هو المزج بين حاستين مع بعضها البعض، فمثلاً المزج بين حاسة السمع وحاسة البصر أو حاسة اللمس والذوق إلخ، فهو إذن وصف «يقوم تراسل الحواسّ على تبادل المحسوسات (البصريّة والسمعيّة و الشميّة و...) صفاتها أو تداخل الصفات بما يحدده السياق وينسجم مع جوّ القصيدة أو المقطع الذي يتمّ فيه التراسل" (يونس، ١٩٩١م: ١٢٦). "ويتبيّن أنّ مفهوم تراسل الحواسّ يتحدّد في وصف مدركات حاسة من الحواسّ بصفات مدركات صفات أخرى كوصف المرئيّ بالمسموع والمشموم باللموس" (بن حوية، ٢٠١٧م: ١٢).

قد وظّف الشّاعر هذه الصناعة الأدبيّة بكلّ مهارة وبراعة خلال قصيدته في عدة مواضع، من شواهد قوله:

أسى ذقتُ منه الدّموع، الدّموع

أجاجاً مثل اللّظى في الفيم (السيّاب، ١٩٨٩م، ج ١: ٥٨٠).

فقد مزج السيّاب بكلّ براعة وقدرة بين حاسة الذوق "ذقتُ" وحاسة البصر "أسى" ليتمكن من خلق انزياح في غاية الجمال، كيف يمكن الجمع بين الأسى والذوق أو طعمه؟ هل الأسى مذاق؟ يا ترى كيف يكون طعمه؟ أليس هذا خروجاً عن اللغة المعتادة! فكلّنا نعلم أنّ النّاس عند تحاورهم لا يوظّفون مثل تلك التّعابير، بل يوظّفون الذوق لما يخصّ الذوق مثل الأطعمة والأشربة، وليس فيما يخصّ شأن الأسى والموم والأحزان، لأنّ الأسى في واقع الأمر لا مذاق كما قلنا، إلا أنّ ذلك ليس ببدع في لغة الأدب والشّعر، وهذا هو الشّعريّة التي تميّز الكلام المعتاد عن كلام شعريّ أدبيّ. وجدير بالإشارة إلى أنّ

الأسى والأحزان - في الحقيقة - أمور قلبية لا ترى بأمّ العين، بل بآثارها وتبعاتها كالدموع والعبوس، ونظراً لتلك الآثار والتبعات أدرجناها ضمن حاسة البصر. وانظر كذلك إلى الشطر الثاني من البيت حيث نسب الشاعر الأجاجية إلى الأسى، بقوله: أسى ... أجاجا مثل اللظى في الفم! والأسى كما قلنا هو مرئي مشهود عبر آثاره وهذا لا يمكن فهمه والحصول عليه إلا عبر حاسة البصر، بينما الأجاجية لا تدرك إلا بحاسة الذوق، ولذلك تجد مزجا بين حاستي البصر والذوق. وكذلك من شواهد:

ترامى إلى الصبية الأبرياء

نداءً تنشقت فيه الدماء (م.ن: ٥٦٩)

فقد يصف الشاعر ذلك النداء الذي يصدر من الطغاة والمستعمرين الإمبرياليين بنداء دمويّ قابل للاستنشاق! لا يمكن أن نتصوّر للنداء دماً لأنها أمر سمعيّ وكيف يستطيع الشاعر أن يستنشق النداء بينما الذي يستنشق هو الرائحة وما يتصل بها؟ فقد استطاع الشاعر خلال هذه العبارة أن يمزج بين حاستين وهما حاسة السمع والبصر لينحرف عن اللغة المعيارية المعتادة ويخلق لغة ملؤها النزوح عن المعتاد المألوف. ومن شواهد ذلك قوله:

صدى عابث من وراء العصور

من الكهف والغاب والمعبّد

سرى دافئاً من عروق الصخور (م.ن: ٥٦٤).

يصف الشاعر صدى الأطفال والأتهات، صدى يجتاز العصور والكهوف والغابات والمعابد، ذلك الصدى الذي يسري ويتحرك بكل حرارة ودفء! كيف يمكن أن يكون للصدى حرارة ودفء؟ كلنا نعلم أنّ الصدى يسمع، لأنه انعكاس للصوت، وكيف يصف ما يسمع بالدفء والحرارة؟ يعتبر ذلك ضرباً من المحال في اللغة الاعتيادية، إلا أنّ هذا الانحراف اللغويّ مألوف معهود في عالم الشعر والأدب، حيث يمزج الشاعر بكل سهولة وبساطة وبكل براعة بين حاستين، حاسة السمع وحاسة اللمس.

في المقطع التالي يتحدث الشاعر عن ضحكة تتصف بالصفاء الذي يستخدم عادة للماء السائل وليس للضحكة المسموعة. يصف الشاعر أبا حين يعود إلى البيت ويستقبله ولده بضحكاته، بقوله:

تلقاه، في الباب، طفلاً شروء

يكرر بالضحكة الصافية (م.ن: ١: ٥٦٥).

ففي استعمالنا المألوف التحاوري لانستخدم الصفاء للضحكة، بل للماء، وإتّما الضحكة توصف عادة بالرفعة والانخفاض، في حين ترى الشاعر أنّه ينعت الضحكة بالصفاء، حيث يمزج بين حاسة السمع (الضحكة) وحاسة اللمس (الصافية)، وهذا تعبير يخرج باللغة عن حالتها الاعتيادية المألوفة إلى لغة شعرية غير مألوفة تماماً، ويقول في المقطع التالي في وصف الألمان:

عصافير بل صبية ترح

وأعمارها في يد الطاغية

والحانها حلوة الصافية (م.ن: ٥٦٨).

الأحان لا تكون حلوة مستساغة ولا صافية إلا في عالم الشعر، لأنّ الأحان مسموعة ويوصف المسموع عادة بالكبير أو الصغر، وليس بالحلوة، وإنما الذي يوصف بالحلو أو الصفاء هو الماء عادة. يعتقد الشاعر أنّ الحان الأطفال والأولاد حلوة صافية، وبذلك يدفع بالمتلقي إلى أن يتلاءم بل يمزج بين حاستين وهما حاسة السمع "الحان" وحاسة الذوق "الحلوة الصافية" بكل مهارة وبراعة. وفي الأبيات التالية يصف الشاعر غناء لا يكون بالأصوات بل بالأشواق:

وإزميل نحاتها المجهد

يغني بأشواقه العاتية (م.ن: ٥٦٤).

مما يبهز العين أنّ الشاعر قد جسّد لنا إزميل و هي أداة معدنيّة ذات حافة حادّة مائلة تُستعمل لقطع الحجارة أو الخشب أو المعدن في هيئة إنسان يغني عند قطع الأحجار و نحتها ثمّ تعرف أنّ الغناء يدرك بحاسة السمع، بينما الشوق يعرف من آثاره على صاحبه، ومن ثمّ هو مرئي، فلا يدرك إذن إلا بحاسة البصر، ولذلك فقد انزاح الشاعر في جملة "يغني بأشواقه العاتية" عن اللّغة المعتادة إلى اللّغة الشعرية الأدبية عبر تراسل الحواسّ ومزجها ببعضها بعضاً

ومن شواهد تراسل الحواسّ كذلك في القصيدة، قول بدر في وصف رصاص يخلي الطرّق من الضحكات والفرحات

(م.ن: ٥٧٣). فقد يصف الشاعر رصاصاً يخلي الطرق والمسالك من ضحكات الأطفال وفرحاتهم، بينما نرى الشاعر أنّه

يصف تلك الضحكات بالصفاء، والمعلوم للجميع أنّ الضحكة مسموعة، بينما الصفاء مرئي فقط، وبذلك فقد مزج بمهارة فائقة بين حاسة السمع وحاسة اللمس والبصر، ممّا يغيب في اللغة المثالية المعتادة وإمّا ذلك من رؤية اللّغة الشعرية.

٣-٥. الانزياح بالمفارقة

الآلية الأخرى التي وظّفها الشاعر خلال قصيدته ليضفي عليها انزياحاً دلاليّاً عبّرها هي المفارقة. "المفارقة من البنى الأثرية للشعرية لا تحلّ إلا في النصّ المفتوح" (عبدالمطلب، ٢٠٠٢م: ٥٩) و"المفارقة اجتماع المتناقضات في بنية متميّزة من التّضاد تتفاعل أطرافها في صراع وجدليّة ضاعده وهابطة في آن واحد، تقوم شعرية المفارقة بشكل أساسي على التّضادّ بين المعنيين الظّاهريّ والباطنيّ وكلّما اشتدّ التّضادّ بينهما ازدادت حدّة المفارقة في النصّ" (بن صالح، ٢٠١٦م: ٤٢) تتمثّل وجوه المفارقة خلال قصيدة "الأسلحة والأطفال" في الأمثلة التالية. يقول السّيّاب:

وتلقاه أجيالها الآتية

على صخرة حملتها يداه

تحاياها في بسمه في الشّفاء

وفي أعين حجّرت مقلّتنا

عليها دموعها الجارية (السياب، ١٩٨٩م، ج ١، ٥٦٤).

انظر إلى تعبير الشاعر "للقاه في بسمة في الشفاه"، يعبر الشاعر عن الموت وظهوره على الشفاه بالضحكة والبسمة، كأن الموت يظهر في تلك البسمات والضحكات التي ترسم على الشفاه، يا تُركيف يمكن الجمع بين البسمة والموت الذي يفتر منه الإنسان حال سماعه ناهيك عن مجيئه وتحمته على قلب البشر؟ أليس ذلك ضرب من المفارقة الكلامية التي أخرج كلام الشاعر عن الحالة الاعتيادية المألوفة إلى حالة غير معتادة مزاحة عما عاهدناه؟ رغم أن اجتماع الموت والبسمة لا يستحيل عقلا إلا أن إرهافات المفارقة قد تجلّت من الموت، فالموت عادة قرين بالحزن والأسى والهّم والبكاء، وليس بالبسمة والضحكة بشكل من الأشكال!

كما يتحدّث الشاعر حديثاً آخر، عبر قوله: "حجّرت مقلنا/ عليها دموعها الجارية" في وصف تلك المقلّة التي لا تقطل الدموع ولا تسكب العبرات، بل هي تشبه الحجر في جمادتها وصلابتها! تلك العيون والمقل التي تعتبر مصدراً غزيراً للدموع، كيف يمكن أن تتحوّل إلى أحجار؟ فقد عبّر الشاعر عن قلّة انسكاب الدموع في العيون بتحجير المقلّة، وهذا تعبير غير مألوف في اللّغة السائدة بل ذلك يشيع في لغة الشعر والأدب. ذلك أن ذرف الدموع من أهمّ ملامح العين، فإذا تحوّلت العين من تلك الحالة إلى ما يسمّى بالتحجير، فذلك ضرب من المفارقة الكلامية غير المعهودة تماماً، لأنه لا يصحّ الجمع بين تحجير العين وذرفها الذي هو ميزتها الأساسية عادة.

وكذلك في التعبير التالي "يثمر حتّى السراب" مفارقة حلوة مدهشة وظّفها الشاعر بيانا لإثمار سراب الفلاة! ذلك السراب الذي لا يثمر قطّ، بل يغوي الإنسان ويهلكه! ولا يندرج تحت المعقول أن ما يغوي الإنسان ويقتله أن يكون مثمراً يوماً ما. يقول السياب:

وتبني القرى

قرى طينها من رميم الطعّاة

وتخضلت حتّى الصّخور الصّنّينه

ويثمر حتّى سراب الفلاة (م، ن: ٥٧٦ - ٥٧٧).

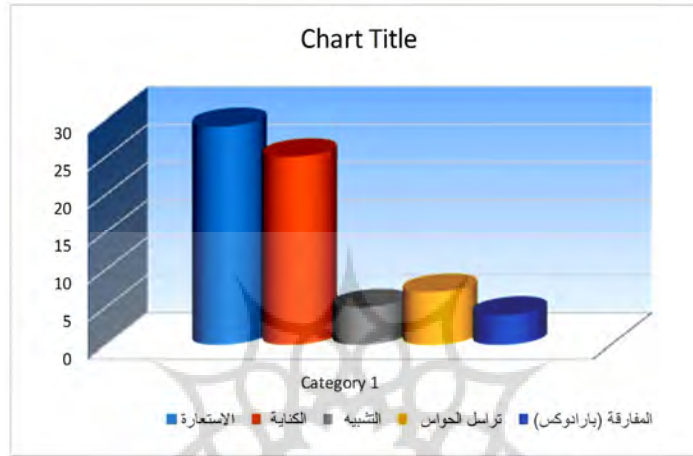
من المعلوم للجميع أنّ السراب ليس ماء بل هو ماء وهمي، يتكوّن بفعل انعكاس الضوء على متن الفلاة والصّحارى! وفي الأبيات التالية يوظّف الشاعر تعبيراً حديثاً لم تسمعه الأذان من قبل، وهو تعبير يعيش في لغة الشعر والأدب. فالبداهة أنّ الميزة البارزة للفوانيس هي الإنارة، إلا أنّ الشاعر يصف الفوانيس بالعتمة والظلمة والحكلة! الفوانيس المعتمة ليست لها وجوداً خارجياً، بل هي فوانيس لا توجد إلا في عالم الأدب والخيال الشعري:

عليها بفانوسه المعتم

فمن يملأ الدار عند الغروب

بدفء الضّحى واخضلال السّهوب؟ (م، ن: ٥٧٨).

بعدما أوردنا ثلّة من الانزياحات الشعرية في قصيدة الأسلحة والأطفال لبدر شاكر السياب وهي تتمثل خلال دراستنا هذه في الاستعارة والتشبيه والكناية (والرمز) والمفارقة وتراسل الحواس، يمكن ترسيم الرسم البياني التالي إيضاحاً لذلك وتحسيدياً لمدى توزيع تلك الآليات خلال القصيدة:



(١) الرسم البياني لتوزيع آليات الانزياح البياني في القصيدة

يتضح لنا بعد النظر إلى الرسم أنّ الشاعر وظّف الاستعارة أكثر من بقية الآليات لتحسيد الانزياح الدلالي - الاستبدالي ويبدو أنّ كلّ استعارة أو تشبيه أو أية محسنة من المحسنات البديعية لاتدرج ضمن الانزياح الدلالي إلا إذا كانت غير مألوفة في لغتنا الدارجة المثالية وإلا لا يصح إدراجها ضمن الانزياح بوجه من الوجوه، فالشاعر عبر توظيفه تلك الآليات والتقنيات تمكّن من خلق لغة جديدة لاتضاهي لغة التحوار والعلم والكتابة، بل هي لغة أدبية - كما لاحظنا- يستمتع منها المتلقّي ويتلذذ منها كل صاحب ذوق سليم.

٤. النتائج

بعد ما عرضنا من إرهابات الانزياح الدلالي في البحث نختم الورقة بخاتمة وهي:

الانزياح الدلالي من أهمّ أسباب تحويل الكلام المعتاد المؤلف إلى كلام شعري أدبي، حيث يسوق المتلقّي إلى مزيد من التأمل والتفكير في النصّ المدروس وفي الشعر المقروء ممّا ينجم عن متعة أدبية خلابة لاتجدها إلا عند كبار الشعراء والأدباء. فقد اتخذ بدر شاكر السياب في قصيدة "الأسلحة والأطفال" هذه التقنية ليضفي على نصّه الشعري رونقا وجمالا ويعبر عن خوالج ضميره ومكامن فكره بآليات الانزياح الدلالي تجعل المتلقّي يتبع صورته الشعرية في القصيدة.

وقد ظهرت هذه الإشكالية في قصيدة الأسلحة والأطفال لبدر شاكر السيّاب بكلّ وضوح وجلاء بيانا لما يعاني منه من آلام وهموم بعد الحرب العالميّة الثانية عبر آليات كثيرة كالاستعارة والتشبيبة والكناية وتراسل الحواسّ والمفارقة. يطرّف في القصيدة صدى يعبر من العصور الغابرة في مختلف مراحل حياة البشر انطلاقا من زمن كان يعيش عيشة بدائية في الكهوف والجبال إلى عصر الحضارات والديانات المختلفة والصدى ذلكم يشرّ بالحركة والحياة في الكائنات جميعها. فالقصيدة تحمل في طيات سطورها بارقات الأمل المعلق على الأجيال الآتية المتمثّل في العصافير والأطفال كما أنّ خطاب السيّاب في القصيدة أحيانا لا يخلو من إشارات اليأس والفشل والعتاب الموجه إلى الآباء الذين قد صاروا طوعا أو كرها أداة في يد تجار الحديد وباعة الأسلحة.

الصورة العامة للقصيدة تبين لنا التقابل بين دنيا الأطفال في عصمتها ونشاطها وحيويتها وما تثير في القلب من اللذة المستكنة، وما بين الدعوة إلى الحديد والنار والذبابات والرصاص. يمثّل الشاعر دنيا الأطفال بكل مهارة وبراعة، كما يرسم الدنيا خالية منها تتحكّم عليها الجبايرة الطاغية.

٥. قائمة المصادر والمراجع

١. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (١٩٩٠م)، لسان العرب، المجلد الثاني، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، دار صادر.
٢. أرسطو (١٩٨٠م)، كتاب صناعة الشعر، شكري محمد عباد، بيروت، دار الثقافة.
٣. بن حوية، رابع (٢٠١٧م)، بنية اللغة الشعرية في الشعر العربي المعاصر، الأردن، عالم الكتب الحديث.
٤. بن صالح، نوال (٢٠١٦م)، جماليات المفارقة في الشعر العربي المعاصر، الطبعة الأولى، الأردن - عمان، الأكاديميون للنشر والتوزيع.
٥. التفتازاني، سعد الدين (١٣٧٠ش)، مختصر المعاني، قم، دار الفكر.
٦. توفيق، حسن (١٩٧٩م)، بدر شاكر السيّاب (دراسة فنية وفكرية)، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٧. الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (١٩٩٢م)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الطبعة الثالثة، جدة، دار المدني، القاهرة، مطبعة المدني.
٨. رشيد الددة، عباس (٢٠٠٩م)، الإنزياح في الخطاب النقديّ والبلاغيّ عند العرب، الطبعة الأولى، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة.
٩. السيّاب، بدر شاكر (١٩٨٩م)، الديوان، بيروت، دار العودة.
١٠. صفوي، كورش (١٣٧٣ش)، از زبان شناسي به ادبيات، المجلد الأول، الطبعة الأولى، طهران، نشر چشمه.
١١. عباس، إحسان (١٩٩٢م)، بدر شاكر السيّاب دراسة في حياته وفي شعره، الطبعة السادسة، بيروت، المؤسسة العربية

للدراستات والنشر.

١٢. عبد المطلب، محمد (٢٠٠٢م)، كتاب الشعر، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون.
١٣. عشري زايد، علي (٢٠٠٨)، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، الطبعة الخامسة، القاهرة، مكتب الآداب.
١٤. عصفور، جابر (١٩٩٢م)، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، الطبعة الثالثة، بيروت، المركز الثقافي العربي.
١٥. القيرواني، ابن رشيقي (١٩٨٨م)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، الطبعة الأولى، بيروت، دار المعرفة.
١٦. محمد ويس، أحمد (٢٠٠٥م)، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
١٧. المعوش، سالم (٢٠٠٦م)، بدر شاكر السياب (أنموذج عصري لم يكتمل) دراسة في تجربة السياب الحياتية والفنية والشعرية، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع.
١٨. بونس، جمال (١٩٩١م)، لغة الشعر عند سميح القاسم، الطبعة الأولى، دمشق، مؤسسة النوري.

References

- [1] Ibn Manzour, Mohammad bin Mokarram (1990). *Lesan ul-Arab* (Arab Language), Vol. 2, 1st Edition, Beirut: Sader Publication.
- [2] Aristotle (1980). *Kitab Sanato al-Shear* (Poetry Workbook), Beirut: Seghafah Publication.
- [3] Benkhuyah, RabeH (2017). *Bonyato al-Loghat al-Sheariah fi al-Shear al-Arabi al-Moaser* (The Structure of Poetic Language in Contemporary Arabic Poetry), Jordan: The World of Modern Books.
- [4] Ben Saleh, Noval (2016). *Jamaliato al-Mofareghah fi al-Shear al-Arabi al-Moaser* (The Aesthetics of Paradox in Contemporary Arab Poetry, 1st Edition, Jordan: Academic Publication and Distribution.
- [5] Al-Taftazani, Saad al-Din (1992). *Mokhtasar al-Maani* (Brief Meanings), Qom: Fekr Publication.
- [6] Tofigh, Hassan (1979). *Badr Shaker Sayyab: An Artistic and Intellectual Study*, Beirut: Arab Institution for Studies and Publishing.
- [7] Al-Jorjani, Abdol Ghaher (1992). *Dalaelo al-Ejaz fi Elm al-Maani* (The Evidence of Miracles in the Science of Meanings), investigation by Mahmoud Mohammad Shaker, 3rd Edition, Jeddah: Madani Publication.
- [8] Rashid al-Diddeh, Abbas (2009). *Enziah fil Khetab al-Naghdiva al-Balaghi end al-Arab* (The Displacement in the Critical and Rhetorical Discourse of the Arabs), 1st Edition, Baghdad: General Cultural Affairs House.
- [9] Al-Sayyab, Badr Shaker (1989). *Divan*, Beirut: Oudah publishing.

- [10] Safavi, Kourosh (1994). *Az Zaban Shenasi be Adabiat* (From Linguistics to Literature), Vol. 1, 1st Edition, Tehran: Cheshmeh Publication.
- [11] Abbas, Ehsan (1992). *Badr Shaker Sayyab: Study on his Life and Poetry*, 6th Edition, Beirut: Arab Foundation for Studies and Publishing.
- [12] Abdol Motalleb, Mohammad (2002). *Ketabo al-Shear* (Poetry Book), Beirut: The Library of Lebanon Publishers.
- [13] Ashri Zaed, Ali (2008). *An Bana al-Ghasidat al-Arabiah* (On building the modern Arabic poem), 5th Edition, Cairo: Maktab al-Adab Publishing.
- [14] Osfour, Jaber (1992). *Al-Sourat al-Fanniah fi Toras al-Naghdi wa al-Balaghi End al-Arab*, 3rd Edition, Beirut: Arab Cultural Center.
- [15] Al-Ghiravani, Ibn Rashigh (1988). *Alomdah*, 1st Edition, Beirut: Marefah Publishing.
- [16] Mohammad Vais, Ahmad (2005). *Enziah men Manzour al-Derasat al-Oslubiah* (Displacement from the Perspective of Stylistic Studies), 1st Edition, Beirut: University Foundation for Studies, Publishing and Distribution.
- [17] Al-Moavvash Salem (2006). *Badr Shaker Sayyab*, 1st Edition, Beirut: Bahsoun Foundation for Publishing and Distribution.
- [18] Yunes, Jamal (1991). *Samih al-Qasim's Poetic Language*, 1st Edition, Damascus: Nouri Foundation.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

A study of Semantics Deviation in the Ode *Alaslaha wa al-Atfal* by Badr Shaker al-Sayyab

Mohsen Seifi^{1*}, Abbas Eghbaly², Elhambabolibahmeh³

1. Assistant professor of Arabic Language and Literature, University of Kashan, kashan, Iran
2. Associate professor of Arabic Language and Literature, University of Kashan, kashan, Iran
3. Ph.D. Student of Arabic Language and Literature, University of Kashan, kashan, Iran

Abstract

Semantics deviation is one of the most important issues being abused in literary criticism. In this sense, the departure from the spoken language i.e. from the ordinary writing to the literary language is a poem full of linguistic and artistic wonders. Prominent writers and poets such as Badr Shaker, Adonis and others have always benefited from this aspect. One of the most important allegations that the meaning of de-awareness has been widely used and reflected in *Alaslaha wa al-Atfal* of Badr Shaker, a great, innovative and contemporary Iraqi poet. In this paper, the authors have adopted a descriptive-analytical approach to highlight the semantic descriptive aspects of the said phrases. This issue has been addressed through various ways and mechanisms such as simile, metaphor, genius, sense, and paradox. The results indicate that deafening of semantics has greatly influenced the creation of literary-poetic language. The general picture of the poem shows the encounter between the children's world and its strength, activity and vitality, and what evokes the heart of the pleasure that is satisfied amid the sound of fire, tanks and bullets. The poet represents the children's world with all skills, and paints the world free of tyrants.

Keywords: Criticism; Semantics Deviation; Contemporary Arabic Poem; Badr Shaker al-Sayyab; *Alaslaha wa al-Atfal*.

* Corresponding Author's E-mail: motaseifi2002@yahoo.com

هنجارگريزي معنایي-جانشینی در قصیده «الأسلحة والأطفال» سروده بدر شاکر سیاب

محسن سیفی^{۱*}، عباس اقبالی^۲، الهام بابلی بهمه^۳

۱. استادیار گروه زبان و ادبیات عرب دانشگاه کاشان
۲. دانشیار گروه زبان و ادبیات عرب، دانشگاه کاشان
۳. دانشجوی دکتری زبان و ادبیات عرب در دانشگاه کاشان

چکیده:

هنجارگريزي معنایي-جانشینی یا عدول از زبان معیار و به کارگیری زبان شعری پیچیده با دلالت‌های مختلف، از مهمترین موضوعات نقد ادبی جدید است که در شعر معاصر عربی نمود فراوانی دارد. قصیده «الأسلحة والأطفال» سروده بدر شاکر سیاب، شاعر نوگرای عراقی، از مهمترین سروده‌هایی است که در آن این نوع هنجارگريزي، بسامد فراوان و پیچیده‌ای دارد. نویسندگان این پژوهش با استفاده از روش نقد فرمالیستی در پی تحلیل و نقد مصادیقی هستند که شاعر با ابزارهای تشبیه، استعاره، کنایه، حسامیزی و متناقض‌نما در این سروده آفریده است. نتایج به دست آمده حاکی از آن است که در سراسر این قصیده، دوگانگی میان جنگ و صلح هویداست و سیاب کوشیده تا با بکارگیری این شگرد، ضمن غنا بخشیدن به متن شعری خویش، احساسات درونی‌اش را آنگونه به تصویر بکشد که خواننده با تمام وجود به دنبال تصاویر شعری هنجارگريزانه شاعر برود. این سروده در لابلای سطرهایش پرتوهای امید به نسل‌های آینده دارد که «العصافير و الأطفال» نمادهای آن هستند. شایان ذکر است که گفتمان سیاب در این سروده گاهی دربردارنده یأس و شکست و نیز سرزنش پدرانی است که خواسته یا ناخواسته بازیچه دست تاجران آهن و اسلحه شده‌اند. فضای قصیده تصویرگر دوگانگی میان دنیای شاد و بیگناه کودکان از یک سو و دنیای آهن، آتش و اسلحه از دیگر سوست. شاعر با مهارت و هنر خویش دنیای کودکانی را به تصویر می‌کشد که ستمگران مستبد در آن حکومت می‌کنند.

واژگان کلیدی: نقد ادبی، هنجارگريزي معنایي-جانشینی، الأسلحة والأطفال، شعر معاصر عربی، بدر شاکر سیاب.